علقت بوالحي فرض غريباً وهناك ارسل انفاسه الاخيرة واسلم تلك الروح الطاهرة لتنال جزاءها الخلد وعزاءها المقيم وقد اوصى ان يدفن هناك في مقبرة لاحدى الكنائس وقال واروا جسدي البالي تحت اطباق من التراب وانصبوا فوق لحدي ساعة شمسية فالحق بمن طوى ذكرهم الزمان

غير ان اسم مثل هذا المحسن العظيم والمصلح الكريم لن تقوى على محوه الايام وكيف ينسى ذكر من احسن الى الانسانية وكان خليل البائس المظلوم ونصير اهل التعاسة والذل والبلاء وهو الذي لولاه لظلت السجون قبور سكانها الى يوم يبعثون . اجل انهُ مات بعد ان ادرك بعض مناهُ غير ان مقصدهُ النبيل لم يمت معهُ شأن كل مقاصد الاصلاح والصلاح . بل ما انفكت آثارهُ تنطق عنهُ بافصح لسان تنهض بذوي الهمم وتحيي موات الشهامة والنخوة والكرم في جميع الامم المتمدنة الى اليوم فبمثاله يقتدي المحسنون وعلى منواله فليسبح المصلحون

رواية تنكرد

للوزير الشهير اللورد بكنسفيلد

الفصل الرابع

فخر الدين — متى ابطل الناس عبادة هذه الاوثان

تنكرد — لما اعلن الله دين الحق يسوع المسيح

فخر الدين — ولكن الله اعلن دين الحق قبل المسيح لما كلّم موسى على جبل سينا وكلّم الانبياء وملوك اسرائيل بعدهُ

تنكرد — والمسيح واحدٌ منهم وهو آخر ملك قام من بيت داود وقد شاء الله ان تخضع لهُ امم الارض وهذا هو الفرق بينهُ وبين من تقدّمهُ من الانبياء . والديانة المسيحية هي الديانة اليهودية بعد ما جُعلت عامة لجميع الامم فظهورها امات الاديان الوثنية

فخر الدين — ومن هم الامم ألست انت منهم

تنكرد — نعم انا منهم من قبائل القوطان الذين مرّت القرون الكثيرة ولم يسمع احد عنهم شيئاً . ولا اعلم ماذا كان حالنا الآن لو لم تنر عقولنا بتعاليم الديانة العربية السورية . لكن هذه الديانة بلغتنا حديثاً فحلا بها شأننا وصار منا الملوك والامراء

فخر الدين — ما اعجب التاريخ وما اكبر فوائدهُ لو تعلمتهُ لتمّت معارفي . ولكن هل أُعَدُّ انا ايضاً من الامم

تنكرد — انا مرتاب في ذلك والراجح عندي ان نسل اسمعيل من شعب الله الخاص وهذا امر كبير لا يستهان به

فخر الدين — وهل كان يوليوس قيصر من الامم

تنكرد — بلا ريب

فخر الدين — والاسكندر المكدوني

تنكرد — نعم الاثنان من الامم واعظم قوّاد الامم وهما يمثلان الامتين العظيمتين اللتين اهتمّ الرسل بتنصيرهما اولاً

فخر الدين — وقد انشأا الممالك العظيمة ولو كانا من الامم

تنكرد — غير ان ممالكهما لا تقاس بمملكة المسيح . اين نسلهما الآن واين رعاياهما . من يوقد لها البخور . كل نسل الرومان واليونان خضع لابن داود وهو يُعبَد الآن في مدينة رومية كرسي القياصرة وفي لندن وبطرس برج وتيوبورك . ولا يُجهل اسمهُ الاَّ في اسيا مسقط رأسهِ التي اجتاحها الترك والتتار واستعبدوا اهلها منذ ستمئة سنة الى الآن فقيدوا العقل الشرقي بقيود الاستعباد ولم يُفلت من يدهم الاَّ بلاد العرب فبقي العقل فيها حرًّا مطلقاً . فمنها يُنتظر ان يقوم من يعفي آثار من اضرَّ اسيا ويعيد الى الشرق حرية العقل وحينئذٍ يعود الملائكة الى مخالطة الناس وتعود الى البلاد طهارتها الاولى فيمتد تأثيرها الى ممالك اوربا وتصلح معتقداتها التي اصبحت كاطراق البالية

فخر الدين — وما قولك لو زالت سلطة التتار وعادت اسيا الى عبادة المعبودات الجميلة التي رأيتها هذا الصباح

جرى هذا الحديث بين تنكرد وفخر الدين بعد ان عادا من زيارة الهيكل ورأيا ما فيهِ من التماثيل البديعة . وقد عادا من هذه الزيارة مدهوشَيْن قليلي الكلام كأن كلاً منهما يفكّر في موضوع غير ما يفكّر فيهِ الآخر فلم يتذاكرا كثيرًا في ما رأياهُ ولم يشيرا في حديثهما الى الملكة . وتغدَّيا ذلك اليوم مع كفرنيس ولم يكن الطعام مما يلذّ اكلهُ ولكنهما لم يكونا متأنقين في طعامهما يأكلان مما حضر من غير سؤال . وقدَّم لهما كفرنيس شيئاً من الخمر فابى فخر الدين شربها لانهُ كان يتظاهر بالاسلام حينئذٍ واما تنكرد فشرب على ذكر الملكة . وقال لهُ كفرنيس بالغي ان الرجال عندكم يشربون دائمًا على ذكر النساء وفي سائر بلاد الافرنج يشربون على ذكر الرجال اما نحن فنكره ادمانكم للمسكرات على كل حال . فقال لهُ تنكرد ولكني رأيتكم تعبدون باخوس اله الخمر وهو مثالهُ في هيكلكم ففعك كفرنيس وقال اني

لم اسمع هذا الاسم قبلاً وكل المتاكانت في انطاكية قبل ان وجد الترك والانكليز . واسماؤها سرٌّ مكتوم عندنا لا يمكننا ان نبوح به لاحد من الغرباء فمن اين اتيت بهذا الاسم . فلم يجبهُ تنكرد علماً انهُ يجهل ما يقول ويحتمل جهلهُ

واتفقوا على ان يمضوا الى الصيد بعد الغداء وكان فخر الدين شد الاثنين اندماشاً لانهُ لم يكن قد سمع شيئاً عن آلهة اليونان وحراج دفنة . اما تنكرد فاستغرب ما رآهُ من الملكة لكنهُ سرَّ بما بدا منها من الشعور بانها تخدم الآلهة وقال في نفسهِ انها تساعدهُ على ما ينويهِ من الدعوة الدينية حاسبًا ان للنساء اليد الطولى في نشر الاديان وبث الحقائق الدينية فان الممالك المسيحية الثلاث فرنسا وانكلترا وروميا تنصرت بواسطة النساء بواسطة كلوتلدا وبرتا واخت الامبراطور باسيليوس وكذلك بلاد المجر وبولندا . اما فخر الدين الاميرالعربي الاصلي فلم يكن يعتقد ان ديانة عربية الاصل تقدر ان تسلط على ملكة النصيرية ولم يخطر لهُ ان يصيرها مثلهُ بل مال الى اتباع مذهبها لانهُ احبها وما حبها في قلبهِ سريعاً حتى تيمهُ . وكان قلبهُ خالياً لم يدخلهُ حبُّ فتاة الا حبُّ حواء لكنهُ كان ينظر اليها كما ينظر الاخ الى اختهِ اما ملكة النصيرية فاحبها من حين رآها ثم لما تجلَّت لهُ بمجالي الآلهة سلبت لبهُ فلم يعد يفكر الاَّ بها وبآلهتها التي علم من تنكرد انها آلهة اليونانيين والرومانيين آلهة الملوك والقياصرة الآلهة التي عزَّزت امرها واغدقت لها ينابيع السعادة فاتسعت مدنها وكثر شعبها ووفرت لهم الخيرات فقال في نفسهِ لا عجب اذا بقي النصيرية امناء لها بل العجب من ان الناس ارتدُّوا عن عبادتها وشجروا حياكلها ولذلك خربت البلاد وساء حال العباد . ثم قال هذا سرٌّ ما اراهُ من الكآبة المستولية على اهالي الشام حتى اليهود ولا يستثنى الاوربيون من ذلك لان هذا الامير الانكليزي جاء يخبرنا ان الافرنج ليسوا اسعد حالاً منا قلا يبعد ان يكون ذلك ناتجاً عن هجرهم هذه الآلهة وابتعادهم عنها . وان كانت نجاة العالم متوقفة على الديانة فلماذا لا نجرب الرجوع الى هذه الديانة القديمة الديانة التي كانت شائعة في بلاد الشام . وهوذا ملكة النصيرية تعتقد لواءها على خمسة وعشرين الفاً من الابطال واذا استطيع ان أُخرج اضعافهم من جبل لبنان فعلى مَ لا انشئ مملكة جديدة عظيمة الشان وتعيد الديانة اليونانية الى ما كانت عليهِ . وكان يحسب ان الدروز يوافقونهُ ويشدون ازرهُ حالاً فيجعل بطريرك الموارنة حبراً اعظم على انطاكية اما اليهود فلا يحولون عن دياناتهم ولكنهُ اذا استدان منهم مبلغاً طائلاً من المال واغراهم بالربا الفاحش لم يحركوا ساكناً بل ظاهروهُ وشدوا ازرهُ فينشئ في البلاد السورية دولة جديدة

الفصل الخامس

لما ودّع فخر الدين تنكرد في المساء ومضى لينام لم تكن نغمة صوته كما كانت من قبلُ وكأنهُ سُرَّ بابتعاده عن تنكرد اما تنكرد فلم ينتبه لذلك ولا انتبه الى ان فخر الدين كان قليل الكلام ذلك اليوم على خلاف عادته لانهُ هو نفسهُ كان قليل الكلام كثير التعمق والتفكير وكان على غاية الوداعة والبساطة لا يسيء الظن باحد ولا يؤلم احداً بكلمة واذا فعل ذلك سهواً عاد على نفسهِ باللائمة. وكان شديد الفراسة لكن اشتغالهُ بامر نفسهِ كان يصرفهُ عن النظر في امر غيرهِ واذا احبَّ انساناً حسب انهُ مثلهُ كريم الاخلاق سليم النية ولذلك لم يخطر على بالهِ انهُ يمكن فخر الدين ان يضمر لهُ شرًّا او ان تفتر محبتهُ له فلم ينتبه لما بدا منهُ من التغير

ودَّعتهما الملكة في اليوم التالي للذهاب الى الصيد وخرجت معهما ببزاتها فنزلوا الى سهل كثير الزرع وجدوا فيهِ صيداً كثيراً وكان فخر الدين امهر من تنكرد في الصيد بالبزاة وارادت الملكة ان يتمرَّن تنكرد مثلهُ فطار فخر الدين منهُ وكانت تعامل فخر الدين بالمجاملة التامة كما يليق بامير كريم ولم يبدُ منها اقلُّ شيء يغيظهُ من حيث اكرامها لهُ ولكنهُ رآها تنظر الى تنكرد بعين اخرى تنظر اليهِ بعين الحب مع الاكرام على ان تنكرد لم يلتفت الى ذلك لان افكارهُ كانت مشغولة بامور اخرى ولا بأس فخر الدين من اجتذاب قلبها لانهُ كان يرى اكرامها لهُ ويعتقد انهُ قادر على اجتذاب القلوب ولان خصمهُ لم يكن يعبأ بمن عليها المخاصمة او لم يكن يهمهُ امتلاك قلبها وزد على ذلك انهُ هو (اي فخر الدين) لم يكن يأنف من استعمال اية حيلة كانت لنيل غرضهِ

وصادق فخر الدين كغريس وعلَّقهُ كثيراً واطنب في مدح سياستهِ وحكمتهِ واستشارهُ في حل مشاكل كثيرة اخترعها اختراعاً او فرض حدوثها وهي من بنات افكارهِ وقال لهُ ان الامير بشيراً اوصاهُ في صباهُ ان يحالف وزير النصيرية ويظاهرهُ ويستعين بهِ ثم اعطاهُ ما معهُ من الجواهر ووعدهُ باكثر منها

وفي اليوم الرابع كان فخر الدين ذاهباً الى ديوان الملكة مع كغريس فتأخر كغريس لبعض امور فدخل فخر الدين وحدهُ ولما استقرَّ بهِ الجلوس جعل يشرح للملكة احوال لبنان ويصف لها قصورهُ في قنوبين وقال لها انهُ يتمنى ان تشرفهُ بزيارتها يوماً من الايام فاصغت اليهِ ثم قالت بصوت منخفض اني مستغربة جدًّا كيف ان خادمنا دركوش بعث الينا يقول ان واحداً من الاميرين على ديننا فان الامير الانكليزي قد اكد لي ان اهل بلادهِ لم يدينوا بديننا قط وانهُ هو يعرف ما يعرفهُ عددٌ لان اهل بلادهِ اعتادوا ان يعلموا اولادهم اشعار

اليونان الاشعار التي نجهلها نحن ولكن فيها كل اخبار ديننا وتعاليمهُ . وهذا من اعجب العجب

فقال فخر الدين لا تستغربي شيئاً يفعلهُ الانكليز لان كل افعالهم في حد الغرابة وهم قوم همج وبلادهم جزيرة قاحلة لا تنبت شيئاً ولذلك يجلبون طعامهم من سواها يأخذون القمح من اوديسا والخمر من اسبانيا وقد علمت في بيروت انهم لا يزرعون القطن الذي يسجونهُ وهذا لا اكاد اصدقهُ . وديانتهم غريب عنهم اخذوهُ من السوريين ولذلك لا يبعد ان يكونوا قد اقتبسوا علومهم من اليونان

الملكة — وهم مع ذلك يحبون الاسفار ويبتعدون بمامير في بلادهم

فخر الدين — ولكن دركوش كان مضطراً فان احد الاميرين يدين بدين النصيرية ولو لم يكن الامير الانكليزي

الملكة — ما معنى هذا الكلام

فخر الدين — لو عرفت امي ايتها الملكة البديعة الجمال ما استغربت كلامي

الملكة — كيف اعرف امك وانا لم اخرج من هذه الجبال ولم ارَ في حياتي امرأة من الموارنة ولا من الدروز

فخر الدين — امالي كفرنيس فانهُ ذهب الى بيت الدين قصر الامير بشير فهو يعرف امي ولو بالاسم لانها كانت من النصيرية

الملكة — أحقيق ذلك أكانت امك من النصيرية ابنة من هي

فخر الدين — اوه ايتها الملكة هذا هو السؤال الذي لا استطيع عنهُ جواباً فان ابي وامي ماتا وانا طفل صغير وقد اتيت الى هنا لاكتشف ابنة من كانت ولقد ظالما حلمت بشعبها ودينها وددتُ ان اعود اليهما

الملكة — هذا من اغرب ما طرق مسامعي

فخر الدين — لا تستغربي ذلك ايتها الملكة البديعة الجمال . ولو كنتِ تدرين كم تحسَّرتُ لانني ربيت بعيداً عن امة امي لرثيت لحالي . قال ذلك وجالت الدموع في عينيهِ

الملكة — ومع ذلك اراك قد اتيت الى هنا لتدعونا الى ديانة أخرى

فخر الدين — مَن أنا معاذ الله . هذا الانكليزي المجنون اتى ليدعوكم الى ديانة اخرى وهو من ابعد الناس عنكم كما ان الانكليز من ابعد الناس عن الديانة التي يتظاهرون بها . وهم يعترفون ان الله لم يحلَّ في رؤسهم ولم يكلم احداً من قومهم

الملكة — لقد كنتُ اظن انكما على رأي واحد ومذهب واحد

فخر الدين — اظن انك علمت ذلك من دركوش اما انا فلم أرَ ذلك الرجل والذي رآهُ خادمُ رفيقي ومنهُ علم ما علم عنّا وما نقلهُ اليك. ورفيقي هو الذي سعى في هذه الزيارة فلما رأيتُ انهُ نال ما لم استطع نيلهُ غنمت الفرصة واتيت معهُ ولم اتعرّض لمخالفتهِ في آرائهِ لانني حسبت ان هذه الزيارة قد تحوّلهُ عن امر قصدهُ وانا اخاف ان يعود عليهِ بالعار والخذلان

الملكة — مهما كان قصدهُ فلا يظهر انهُ من الناس الذين يفعلون فعلاً يعود عليهم بالعار

فخر الدين — كلاَّ كلاَّ لم اقصد ذلك فانهُ شاب ابيُّ النفس كامل المروءة لا يفعل شيئاً يستحق ان يعاب عليهِ كلاَّ وانما اعني انهُ مشتبك مع الناس قد يضرونهُ ويتلفون عيشتهُ . مثال ذلك ان اليهود ممنوعون من الدخول الى بلاد الانكليز ولو جازت لهم الاقامة في جبل طارق. ومن المقرَّر الآن ان هذا الامير ساح هذه السياحة الدينية السياسية لانهُ عشق فتاة يهودية في الشام وهو لا يستطيع ان يعود بها الى بلادهِ زوجةً لهُ

الملكة — "أعشق فتاة يهودية ماذا تقول" قالت ذلك وعلَتها صفرة الوجل

فخر الدين — نعم فتاة يهودية وقد استهوتهُ ووضعت في عقلهِ انهُ يستطيع ان يتغلَّب على فارَّة اسيا كلها بسيوف اهل الشام

الملكة — ولكن أتسمح ملكة الانكليز لواحد من رعاياها ان يتزوج يهودية

فخر الدين — كلاَّ وان تزوَّجها قطعت رأسهُ وحرقت زوجتهُ حية ولكن قد يمكننا ان نداوي العلة قبل تمكنها

الملكة — نعم لا بد لنا من ذلك

فخر الدين — والذي يذهلني من امر هذا الرجل انهُ يكلمني ويكلمك كأنهُ يريد ان يستعملنا آلة لاغراضهِ وكأن سورية صغيرٌ في عينيهِ مع ان سورية هي الاصل ونحن يمكننا ان نفعل كثيرٌ اذا اتحدنا . اذا اتحد اهالي جبل لبنان واهالي جبال النصيرية كسروا نير الاتراك ولم يقف احد في وجهم ولا ملوك الافرنج . ولا شيء اتمنَّاهُ مثل ان اقهر عيزو وزير فرنسا وايردين وزير انكلترا . وقد بعثت اليهما بالاسقف مراد في العام الماضي فلعَّبهما لعب السعادين وكادا يملكاني جبل لبنان لأُزيل القلاقل منهُ وهي لا وجود لها الاَّ في اخيلتهما التي سمعتها

الملكة — ما اغرب هذه الامور ولكن لا بدَّ من ان تكون هذه اليهودية جميلة جدًّ

فخر الدين — كذا يقول وهو هائم بها ويتكلم عنها في نومهِ

الملكة — اصبتُ في انهُ لا يليق بنا ان نسعى سعيوفنا لاجل يهودية . ولكن أسمراء

في لم يبيضاء

فخر الدين — قرأت بعض الاشعار التي نظمها منزلاً بها فرأيته يشبهها بالبدر والنجم من كواكب الليل وهذا يدل على انها عذراء

الملكة — اني اكره اليهود جداً ولكنني اسمع ان نساءهم جميلات

فخر الدين — متى ملكنا سورية نفيهم كلهم منها

الملكة — نعم كانت سورية مملكة بل كانت ممالك

فخر الدين — وستعود مملكة وتلكين عليها ابنها الملكة ويتم ما اتمناهُ وهو غرض حياتي

الملكة — وما هو

فخر الدين — هو وصية امي التي اوصتني بها قبل موتها ولم ابُحْ بها الى مخلوق قبل الآن

الملكة — اذاً انت تذكر امك

فخر الدين — كلاً ولكنها تركت وصيتها مع مرضعتي وهي اخبرتني بها لما بلغتُ سن التمييز

الملكة — وما هي وصيتها

فخر الدين — ان ابني هيكلاً من الرخام في دير القمر لالهة السوريين

فتهلل وجه الملكة وقالت ما اجمل ذلك

فخر الدين — فيعود اهالي لبنان الى دينهم القديم

الملكة — وما يفعل بك الكهنة الذين كنت تعتمد عليهم

فخر الدين — ماذا فعل الكهنة والكاهنات لما انتصر اهالي سورية . صاروا قسوساً وراهبات فيعودون الآن الى ما كانوا عليه

الفصل السادس

مضى تنكرد وفخر الدين وطافا في البلاد المجاورة وتعرّفا بامرائها ومشايخها لكي يكونوا ظهراء لهم . وكأنَّ هواء الجبال اعاد البهجة والسرور الى نفس فخر الدين فعاد ينظر الى تنكرد نظر الصداقة والوداد . وقضيا في التطواف ثلاثة ايام ثم عادا الى الحصن حيث تقيم الملكة ولما بلغا دارهُ الخارجية رأيا فيها جنوداً من الاتراك مجرَّدين من سلاحهم وجمالاً وامتعة مختلفة وكثيرين من النصيرية بالاسلحة الكاملة . فسأل فخر الدين ما هذا فقيل لهُ انهم اسروا حريم والي حلب . فنظر الى تنكرد وقد ابرقت اسرَّتهُ وقال لهُ لقد نشبت نار الحرب

وما كادا يستريحان من وعثاء السفر حتى اتاهما الوزير كغريس وسلَّم عليهما وحدثهما حديثاً طويلاً مبهماً لم يفهما منهُ غير ان رجالهُ اسروا حريم والي حلب . فقال لهُ فخر الدين ان اسر حريم الوالي ليس بالامر السهل ولا بدَّ من مشاكل كثيرة تتلوهُ فقال الوزير ان علم المستقبل

ليس في يدنا حتى علم الماضي يجهله اكثر الناس فكيف يعملون للمستقبل. ثم سأله فخر الدين عن صحة الملكة فقال انها كثيرة المشاغل في هذه الايام فقال فخر الدين اذا احتجتم الى نجدة فكل اهالي لبنان تحت امركم

فاحنى كنفريس رأسهُ وقال . لا شك ان من المشاكل ما لا يفضُّ الاَّ بالسيف ولقد احسن الامير الكريم في ما قال واصاب كبد الصواب ولكن من المشاكل ما يفضُّ بالكلام وحسن السياسة . ولا يظهر مما حدث حتى الآن انهُ لا بدَّ من امتشاق الحسام وايقاد نار الحرب بين رعيَّة ملكتنا المجيدة وسكان مدن الساحل كما انهُ لا يمكن ان الحرب تكون احياناً كثيرة احسن فيصل في حل المشاكل. ولا تخلو الجاملة من الفائدة ولو مع الاتراك كما انهُ لا يُنكر ان باشوات الاتراك من اكره الناس الينا

فقال فخر الدين لو كنتُ مكان الملكة ما ارجعت حريم الباشا اليهِ بل كنت اضرم نار هذه الحرب حالاً لان حامية حلب ضعيفة جدًّا وقد اضطرَّت الدولة ان ترسل ست اورط منها الى دير القمر . والناس في لبنان خالدون الى السكينة ولكن اذا ارسلتُ رسالة واحدة الى الشيخ فرنسيس الخازن قام اهل الجبل واضرموا خمسين نارًا حوالي بيروت فيبعث الكولونل روز الى السر كنتع يقول لهُ ان الجبل قد ثار كلهُ ويبعث رسالة الى الوزير ايردين يملأها باخبار حرق القرى وذبح النساء

وعند الغروب ارسلت الملكة الى الاميرين تقول انها تسمح لهما بمقابلتها ولمَّا مثلا بين يديها هنَّأتهما برجوعهما سالمين وسألتهما عما رأيا في سياحتهما وعما فعلا وعمَّن شاهدا واشارت في اثناء الحديث الى ما حدث عندها وان رجالها اسروا حريم والي حلب فقال فخر الدين اني كنتُ اتكلم الآن مع حضرة الوزير وقلتُ لهُ ان كل رجال لبنان تحت امر جلالتك

فقالت عندنا العدد الكافي من الرجال ايها الامير الكريم وهذا ليس مرادي ولا غرض لي بالحرب فان كان الوالي يتنازل عن خراج القرى التي طلب خراجها فانا ارد اليهِ حريمهُ عن طيب نفس وان ابى عدنا الى البحث في هذا الموضوع . واكره ان تمتزج مسألة الحريم بالمسائل السابقة لها . ومع الحريم امرأة بارعة الجمال وهي ليست تركية واظنها نصرانية من سكان المدن لكنها غائصة في بحار الحزن ولا تجف لها دمعة حتى كدتُ اشاركها في حزنها . وهي لا تبكي لانها اسيرة بل لان عزيزًا لها قتل. وقد زرتها وحاولتُ تعزيتها وطلبتُ منها ان تنسى حزنها وتبقى عندي رفيقةً لي ولكن لم يفد الكلام معها شيئًا ولا تزال تسكب العبرات من عينين لم ارَ احلى منهما

وحينئذٍ دخلت شبرا وعلى وجهها علامات الاضطراب وبانت من الملكة وكلمتها بصوت منخفض وظهر من كلامها ان الاسيرة طلبت ان ترى الملكة وخافت شبرا ان تدخلها الى مولاتها في حضرة الاميرين لانها كانت تعلم ان نساء الدروز والموارنة لا يدخلون مجالس الرجال مثل نساء النصيرية فقالت لها الاسيرة انها لا تأنف من دخول مجالس الرجال فانت لتخبر مولاتها وتستأذنها . فكلمت الملكة كغريس في ذلك فقال انهُ لا يرى مانعاً من دخولها فاذنت لها في الدخول . وكان كغريس جالساً الى جانب الامير فخر الدين فانتهز فرصة كلام الملكة مع شبرا وجعل يكلم فخر الدين في امر آخر وكان قد ملأ اذن الملكة من مدحه والاطناب في شهامته وبسالته وفائدة المحالفة معهُ لانهُ اذا تحالف النصيرية واهالي لبنان وكانوا يداً واحدة فلا يبعد ان تخول ملكة آل عثمان قريباً فيسهل عليهم انشاء مملكة قوية في بلاد الشام . فاخبر فخر الدين بما دار بينهُ وبين الملكة من الحديث فايرقت اسرَّة فخر الدين وجعل يمنّيه ويقول لهُ انا نبني هيكلاً لآلهة سورية في دير القمر ونخلص من الاساقفة والرهبان الذين يشربون خمري ويدخنون تبغي ولا يفيدوني شيئاً. وانت ذهبت الى بيت الدين ولم تذهب الى قنوبين ولكن نسبة بيت الدين الى قنوبين كنسبة السهى الى القمر فان الرخام الذي فيها وحدهُ كلّف عشرة آلاف كيس فتمّ لي هذا الامر وقصر قنوبين لك

ولما كان كغريس يتكلم مع فخر الدين اشارت الملكة الى تنكرد ليدنو منها فدنا فقالت لهُ أتحلم وانت نائم . فقال ان الحياة كلها حلم في ما يقال . فقالت يا حبذا لو كانت حلماً ولكني ارى فيها من الالم ما لا يكون في الحلم . فقد حلمتُ منذ ليلتين ان اليهود استولوا على هذا الحصن واظن انك ذكرتهم لي كثيراً حتى صرتُ احلم بهم في نومي . فقال ان ذكرهم امر لا بدَّ منهُ لان الشريعة التي سنها واحد منهم لا بدَّ من ان تشمل العالم . فقالت ولكن ذلك لا يسرّني واستاء كثيراً اذا تمَّ الحلم الذي حلمتهُ . فقال لتكن احلامك كلها فرحاً وسروراً ايتها الملكة الجليلة . فقالت كنتُ احب الحياة فرحاً وسروراً ولكنني لا اجدها كذلك الآن . فقال ولماذا . فقالت يا حبذا لو كنتَ تحلم حلماً مثلي فتعلم لماذا ولكن الحياة كلها بافراحها واتراحها ظل زائل تأتي وتمضي كالطيور القواطع . فقال كالحمامة التي بعثتَ بها الى خادمك في دمشق. فقالت يا حبذا لو لم ارسلها . فقال متى تمت الاعمال العظيمة المترتبة على زيارتنا لا تعودين تندمين على ارسالها . فقالت انا امرأة والنساء لم يُخلقن للاعمال العظيمة بل للاعمال الجميلة . فقال افلتكِ لا تزالين تفكرين بالهة السوريين . فقالت كلاَّ ولكن هات أخبرني أصحيح ما يقال من ان النساء اليهوديات جميلات جداً . فقال كذا يقال عنهنَّ. فقالت ولكن ماذا تقول انت .

فقال اني رأيت منهن نساء جميلات جدًّا . فقالت ايشبهن الثاثيل التي في هيكلنا . فقال كلاَّ لان الشكل اليهودي غير الشكل اليوناني ولكن الفريقين من اجمل طوائف الناس . فقالت ولكني اراك تفضّل الجمال اليهودي على اليوناني . فقال انا لستُ ثقةً في هذا الموضوع مع اني احب رؤية الجمال . ولما قال ذلك سمعت الملكة صوت شبرا داخلة فقالت لهُ هذه اسيرتنا آتية ولكَ ان تطلق سبيلها اذا اردت اظنها شركسية ولم أرَ اجمل منها في حياتي واظنها اجمل من تلك اليهودية التي بلغني انك مغرَم بها . ولما قالت ذلك اضطرب تنكرد وقبل ان يجيبها بكلمة دخلت شبرا ومعها الاسيرة فازاحت النقاب عن وجهها فاذا هي حواء

الفصل السابع

يتصل بحصن ملكة النصيرية غُرف كثيرة قديمة العهد منقورة في الصخر الاصم تحفظ فيها الكنوز او يُسجن الاسرى . في غرفة منها باردة مظلمة لا يصل اليها النور الاَّ من ثقب صغير في سقفها فتاة بديعة الجمال ملقاة على فراش من القش . حواء بنت بسو فتاة ربيت في الرفاهة والنعيم مطلقة القياد تفعل ما تشاء وتعمل ما تريد متمتعة بحرية لم يتمتع بها بنات المشرق ولا بنات المغرب طُرحت في هذا السجن العميق في حالة يرثي لها الجماد

توالت الكوارث عليها في اسبوع من الزمان على اسلوب ادهشتها غرابتهُ فانهُ منذ اقل من عشرة ايام قام بها ابوها من دمشق ذاهبًا الى حلب لتلتزف فيها الى خطيبها فلما وصلا الى حمص لقيتهما فرقة من الجنود التركية ارسلها والي حلب بطلب خطيبها هلال بسو لتجرمهما في الطريق خوفًا من النصيرية لكنَّ هذا الحذر لم يجدِ نفعًا لان النصيرية باغتوا الجنود على نصف مرحلة من حلب واثخنوا فيهم وجرح ابو حواء وهو يدافع عن ابنتهِ وأُسرت في وجوارديها وأُتي بهنَّ الى حصن ملكة النصيرية

وظنّت حواء ان ابا ها وقع قتيلاً فشغلها حزنها عليهِ عن امر نفسها حتى فقدت صوابها وبقيت مدَّة لا تعي شيئًا . ثم لما افاقت من دهشتها واخذت تفكر في امر نفسها سمعت من شبرا ان تنكرد وفخر الدين في ذلك الحصن وتذكرت ما ابدتهُ لها الملكة من دلائل الحب والوداد لما عرضتهُ عليها من ان تكون رفيقة لها لا اسيرة عندها فطلبت من شبرا ان تستأذن لها في مقابلتها عساها تجد سبيلاً للكلام مع صديقيها تنكرد وفخر الدين فتستشيرها في البحث عن ابيها وعما يجب عليها فعلهُ لكن جاء الامر على ضدّ ما تريد لانهُ لما رأت الملكة ان تنكرد وفخر الدين عرفا اسيرتها واندهشا من رؤيتها واظهرا العطف عليها واحبّ لما غارت منه واغتاظت واشارت الى فخر الدين فدنا منها وسألتهُ بعض مسائل ثم نهضت من مجلسها وانصرفت

من غير ان تحييها تحيّة الوداع على جاري عادتها . وكانت حواء نازلة في غرفة من غرف الملكة اما الآن فقادوها الى السجن فباتت فيهِ تلك الليلة وجانباً من النهار التالي وهي لا ترى احداً الاَّ شبرا وكانت تسألها عن سبب غيظ الملكة فلا تجيبها بشيء بل تشير اليها بانها ممنوعة من الكلام معها

حالة تحار فيها الافهام و يبهر المرء ذكاؤهُ . ومن لا يحار يليَّة تقع بهِ بغتةً وهو لا يدري لها سبباً ولا يجد من يرشدهُ الى مغزاها. مصاب عظيم وسرٌّ غامض ضاقت بهما ذرعاً فغاصت في بحار الحزن والهم ولم تعُدْ ترى امام عينيها الاَّ النظرة الاخيرة من ابيها وهو على الارض متمرغ بدمائهِ . وبينما هي على هذه الحال واذا بصوت ينادي باسمها و يقول حواء حواء. فقالت من انت ولما قالت ذلك رأت شبحاً يتقدَّم منها ثم طرح عنهُ عباءة كبيرة كان ملتحفاً بها فصرخت فخر الدين ما هذا وماذا جرى . وكان فخر الدين مضطرباً فقال لها هلمَّ معي حالاً ولا يمكننا ان نتأخر دقيقةً واحدة

حواء — لماذا والى اين فقد كان قصدهم السلب لا غير وقد سلبونا فماذا غير افكارهم الآن . وامس اظهرت الملكة لي مزيد الحب والاكرام ولم ارتضِ بما فعلتهُ معي حينئذٍ لان الحزن على ابي كان غالباً عليَّ . ثم لما رأيت انني صرت بين اعز اصدقائي الذين يحق لي ان اعتمد عليهم في الشدَّة وكنتُ اتمنى ان يتصل بهم خبري تغيرت الحال بغتةً والآن انا حبيسة في هذا السجن المظلم وانت تكلمني كأن حياتي في خطر

فخر الدين — نعم في اشد الخطار

حواء — ولماذا

فتركها كئيبة وقال في اشد الخطر قومي حالاً واتبعيني

حواء — انا لا يهمني امر نفسي ولا امشي خطوة من هنا ما لم تخبرني عن سبب هذا الانقلاب

فخر الدين — الملكة غيرى منكِ لانها تحب الامير الانكليزي وهو سبب كل ما جرى

حواء — أهو سبب كل ما جرى والملكة غيرى مني كيف تغار مني وانا لم اكلمها عشر كلمات وامس طلبت مني ان اكون رفيقةً لها. هذا امر لا اصدقهُ يا فخر الدين

فخر الدين — ونكنهُ صدق فانها غيرى منكِ وهي تحبهُ لعنة الله عليهِ وعليها وقد أُخبرتُ انهُ يحبك

حواء — من اخبرها ومتى كان ذلك

فخر الدين — أُخبرتُ انهُ يحبُّ ابنة رجل يهودي من دمشق اسمهُ بسو فلما تقابلتما واظهر انهُ يعرفك جرى ما جرى وقد بذلتُ جهدي لكي اقنعها انك لست الابنة التي يحبها بل ابنة عمها فلم تقتنع وبذلتُ جهدي لكي انجيك فلم افلح والآن انتِ في اشد الخطر

فاطرقت حواء قليلاً ثم التفتت اليهِ وقالت انتَ الذي اخبر الملكة بهذه القصة الملفقة انت اخترعتها واخبرتها بها وليس غيرك ولا يهمني ان اعرف ما هو الحامل لك على ذلك لانني اعلم انك تستحلُّ كل شيء في سبيل اغراضك . اليكَ عني ولا بدَّ لي من ان اقابل الملكة بنفسي واقص عليها واقعة الحال كما هي وانا واثقة انها تصدقني وان الصدق يغلب الكذب وان لم يغلبهُ فلا مأرب لي في الحياة . ولا بدَّ من ان افعل ذلك بنفسي لانني لا اقدر ان أُتمنك على شيء

ولمَّا قالت ذلك اخذ فخر الدين يبكي ويتحب ويتوسل اليها ويقول يا حواء يا اختي يا حبيبتي انا اخبرتها بذلك نعم انا اخبرتها بجهلي وطيشي وقد نلتُ جزاء ما فعلتُ وخربتُ مستقبلي بيدي فان هذا الافرنجي كان الحاجز الوحيد بيني وبين الاقتران بهذه الملكة وهي على ما ترين من الجمال وعلو الشان ولو اقترنتُ بها وانضمَّت بلادها الى بلادي لصار منهما مملكة قوية منيعة وذلك غرضي من الدنيا . نعم اني احببتها واردتُ ان اقترن بها ولا اخالك تلومينني على ذلك يا حواء لانكِ تعلمين انكِ لو رضيتِ ان تقترني بي انتِ ما كنَّا وصلنا الى ما وصلنا اليهِ الآن وكنا الآن عائشين في اتم الرفاهة لكن مضى ما مضى وانا اتمنى خلق الله . ولما رأيتُ انها تحب هذا الامير الانكليزي اردت ان اقنعها بانهُ يحب غيرها فذكرتُ اسمكِ لها إما لانهُ اول اسم خطر ببالي او لاني اظن انهُ يحبكِ حقيقة فنجحتُ في ذلك ورشيتُ وزيرها فجعل يحسّن امورك في عينيها . فكيف كان يمكن ان يخطر ببالي انكِ تأتين الى هنا . ولما رأيتكِ في مجلسها شعرت ان كل ما بنيتهُ هُدِم وبذلتُ جهدي لاصلح الامور فلم افلح لان تنكرد ارعن لا يعرف كيف يداري والملكة فتية قليلة الخبرة وهي الآن كالجمرة القاقدة اشبالها

حواء — لا يزال الهوى طالعك وطالع كل من يصاحبك فكيف اتبعك الآن

فخر الدين — اكدي اني ما عدتُ اهتمُّ بامر نفسي مطلقاً ولا يهمني الاَّ نجاتكِ فسامحيني عمَّا مضى كما سامحتني مراراً كثيرة من قبل . وانا ليس لي الآن صديق في الدنيا غيركِ ولا يهمني الاَّ نجاتكِ

حواء — أصحيح ان حياتي في خطر اكيد او انتَ تبالغ في ذلك

فخر — نعم في خطر اكيد

حواء — انتَ لا تعرف قيمة الصدق ولم تجرب ما يفعلهُ دعني أُبَرّ الملكة واخبرها بواقعة الحال

فخر الدين — يستحيل ذلك لانها الآن كالمجنونة حتى ان الوزير كفرنيس اخبرني هذه الدقيقة انهُ لا يستطيع ان يقف امامها من شدّة غيظها . ولا فائدة من ذهابكِ اليها لانها ولا اخفي عليكِ تحسبكِ الآن في عداد الاموات

حواء — في عداد الاموات كيف ذلك واين صديقك وهل يعرف هو ذلك

فخر الدين — كلاَّ لا احد يعرف ذلك غيري فان الملكة استدعتني البارحة فرأيت انهُ من المحال ان احاول صرفها عن عزمها لئلا تظن السوء فينا كلنا ولا تصدقني لو صدّقتُها ورأيت انها صممت النية على قتلكِ فلم أَرَ لي سبيلاً الاَّ تصويب رأيها وتجاراتها على عزمها وقلتُ لها ان اباك خرب بيتي وان هذه هي اول فرصة لاحتْ لي لانتقم منهُ وقد مضت السنون وانا في انتظار هذه الفرصة وطلبت منها ان تكل قتلكِ اليَّ لاشفي غليلي ولو لم اطلب منها ذلك لوكلت غيري بقتلكِ وقضي الامر

حواء — أإليكَ وكلت امر قتلي

فخر الدين — نعم وقد طلبتُ ذلك منها لكي اتمكن من انقاذك

حواء — لا تتقدني فاني صرتُ اكره الحياة بعد ان فقدت من اعطاني الحياة

فخر الدين — ما هذا الجنون أهلكتْ نفسي لكي اخلصكِ واغضبت عن مملكة لكي اردكِ الى ابيكِ سالمة وانت تعاملينني هذه المعاملة . وقد رشيت كفرنيس واخذتُ منهُ جوازًا لفتح الباب وثوبين من اثواب المماليك لي ولكِ واعددتُ جوادين لنا وهما امام الباب الآن وفي اقل من يومين نصير في بلاد الامان

حواء — لا اهرب هربًا ولا يحل لك ان تهرب وتترك رفيقك الذي قدتهُ الى هذه التهلكة

فخر الدين — هو ادرى منكِ ومني بامر نفسهِ وقد تبقيهِ الملكة اسيرًا عندها ولكن لا يمكن ان تقتلهُ لانها تحبهُ ولا تحتمل القلوب بقطع الرؤوس . والآن فات الوقت علينا فقومي معي يا حواء قومي يا اختي والاَّ فات الوقت ولم استطع تخليصكِ . قومي وافكري بابيكِ وبجزعهِ عليكِ وشوقهِ اليكِ . ولما قال ذلك اعولت حواء في البكاء وقالت اوّاهُ قتلوهُ فاين اراهُ . فقال لها كلاَّ بل هو حيّ وقد اخبرني واحد من الجنود انهُ جُرح جرحًا طفيفًا وحملوهُ وساروا بهِ وهو الآن في حلب من غير شك

حواء — حملوهُ حيًّا من قال ذلك

فخر الدين — نعم حملوهُ حيًّا وقد اخبرني واحد من الجنود المأمورين هنا ان جرحهُ غير ذي خطر وانهُ تكلم معهُ

فركعت حواء على ركبتيها ورفعت يديها الى السماء وقالت يا اله آبائي الجالس على عرش الرحمة

فقال فخر الدين نعم ليس غير اله آبائك ولو كنتِ تعرفين ماذا يعبدون في هذه المغاير لهربتِ منها من نفسكِ فانهم يعبدون الاصنام والملكة عشقت هذا الامير الانكليزي لانهُ يشبه صنمًا من اصنامها فقومي بنا قبل فوات الفرصة

حواء — وكيف عرف هذا الرجل ان جرح أبي غير ذي خطر

فخر الدين — ستريهُ بنفسكِ وهو يخبركِ لانهُ مع خيلنا الآن فقومي والبسي هذه الثياب وكل دقيقة تمضي لا يمكننا التعويض عنها

حواء — ألا ترى انهُ من العار علينا ان نترك هذا الامير هنا بعد ان اكل معنا الخبز والملح فيكون دمهُ على رؤوسنا

فخر الدين — ان كان امرهُ يهمكِ بهذا المقدار فاهربي لاجلهِ لانكِ اذا هربتِ تصيرين قادرة على مساعدتهِ بالف طريقة كأن اعود انا مثلاً وانقذهُ او ندبر طريقة اخرى لانقاذهِ واما ما دمتِ هنا فانت وهو تحت الخطر

حواء — اقسم لي بشرفك انك اذا اجتزنا حدود هذه البلاد تعود الى هذا الامير وتنقذهُ

فخر الدين — نعم اقسم بشرفي وديني وكل عزيز لدي

الفصل الثامن

لما رأى تنكرد حواء في مجلس الملكة على ما تقدَّم وعلم انها سيرةٌ في قبضة يدها طار صوابهُ واقبل على فخر الدين بعد خروجهما من مجلسها يسألهُ عما يعلمهُ من امرها وعن الوسائل التي يجب ان يستعملها لنجاتها فرآهُ اسيفًا مضطرب الافكار غائصًا في بحار اليأس لا يدري ما يقول ولا بماذا يشير. فعزَّ اسفهُ وحزنهُ الى رؤيتهِ حواء في الاسر ولكنهُ لم يفهم سبب اضطرابهِ لانهُ كان يعلمهُ واسع الحيلة لا تصدهُ المصاعب ولا تقعدهُ المتاعب . حتى اذا بلغا غرفتيهما انطرح فخر الدين على سريرهِ وهو يتأوَّه ويتململ كمن ضاقت الدنيا في عينيهِ ثم نهض وجعل يمشي في غرفتهِ ذهابًا وايابًا ويفرك كفيهِ . ولم يجب تنكرد الاَّ بما يشفُّ عن خوفهِ على حواء لانها وقعت في يد اناس لا يشفقون ولا يرحمون

وحاول تنكرد ان يقابل كفريس ويسألهُ عن جلية الامر فلم يحظَ بهِ ومضى ذلك القيل ولم يمضِ لهُ جفن ونهض في الصباح باكرًا وجاء الى غرفة فخر الدين فلم يجدهُ فيها وكان من

عادة كنوريس ان يزورها في الصباح فلم يزرها ذلك اليوم ومضى باروني ليسأل عن حواء ويقف على ما يمكنهُ الوقوف عليهِ من امرها فشعر تنكرد كأنهُ صار وحيدًا في هذه الدنيا وعزم ان يقابل الملكة ويسألها عن حواء ويطلب منها ان تطلق سبيلها بناء على بينها وبين الامير نحر من رابطة القرابة وعلى فضلها عليهِ نفسهِ وعلى آدابها وفضائلها لكنهُ لم يجد من يستأذن لهُ في الدخول على الملكة

وقبل الظهر بساعتين جاءهُ باروني يقول لهُ ان الملكة دخلت الى الهيكل الاعظم هيكل الآلهة . فعزم ان يتبعها اليهِ وسار من ساعتهِ من غرفة الى أخرى الى ان وصل الى باب النحاس فوجدهُ مقفلاً فوقف لا يدري ما يفعل وبينما هو واقف سمع صوت المرنمين في الهيكل ثم انفتح الباب في وجههِ فحجبهُ احد مصراعيهِ عن الانظار وخرج منهُ موكب عظيم من الغلمان والجواري والكهان وهم ينشدون نشيدًا رخيمًا ولم تكن الملكة معهم ولما خرجوا كلهم دخل من الباب فلم يلتفت اليهِ احد وأقفل الباب وراءهُ فامسى في ظلام دامس لكن الظلام قلَّ رويدًا رويدًا فسار في السرداب والنور يزيد اشراقًا الى ان دخل الى الغرفة المكشوفة التي امام باب الهيكل آخر ملجإ لجأت اليهِ الهة اليونان بنات عقولهم ونتائج فنونهم الراسخة في الرخام والمرمر في جوف الارض وصلد الصخر . فدخل كمن يدخل هيكلاً قدسيًا بالرهبة والوقار ومشى رويدًا رويدًا الى دنا من تمثال ابلُّو معبود اهالي انطاكية فرأى الملكة جاثية امامهُ على ركبتيها شاخصة اليهِ لا حراك بها كأنها في حلم او ذهول

وكانت الشمس قد تكبدت السماء والقت اشعتها على هذا التمثال فحلتهُ بالبهاء وحوَّطتهُ بهالة ذهبية من الضياء فلما وقعت عينهُ عليها احجم الى الوراء فوقع خيالهُ على الجدار امامها كأنهُ تمثال آخر تجلَّى لها فذعرت ونهضت على قدميها والتفتت الى ما ورائها حتى اذا وقعت عينها على عينيهِ اطرقت الى الارض وقد علت وجنتيها حمرة الخجل

فقال بصوت منخفض كنتُ عازمًا على الرجوع من حيث اتيت

فنظرت اليهِ بانكسار وقالت بصوت رخيم ولماذا ترجع

فقال لاني لم أكن اعلم انكِ وجدكِ في هذا المكان

فقالت نعم انا وحدي وقد طالت وحدتي حتى كرهتُ الوحدة . ثم مشت في الهيكل ومشى تنكرد معها الى ان وصلت الى الرواق المكشوف فوقفت . ورأى تنكرد انها لا تنوي التقدم الى الامام فقال هذه فرصة للكلام معها في امر حواء فابتدرها بالكلام عنها وافاض في وصف فضائل ابيها بسو ومكارم اخلاقهِ ثم استطرد الى حواء وبالغ في اطرائها حسبما املى

عليهِ قلبهُ فذكر ادبها ولطفها وشهامتها وشجاعتها الى ان قال ومن ثمَّ لا تستغربين ما اصابني من الدهشة لما رأيتها امس اسيرة ولكنني تعزيت لانها في اسرك لا في اسر سواك ولذلك بادرت لاعرض امرها على جلالتك واتوسَّل اليك لتطلق سبيلها وتعاملها بما تستحق من الاكرام

فقالت نعم اني لا استغرب شيئاً من ذلك

فنظر اليها لانها قالت ما قالت بصوت الغيظ فرأى وجهها قد تغير من السكينة والبشاشة الى الاضطراب والعبوسة . ثم قالت اني لا استغرب ذلك ولكني لا اساعدك على العبث بشرائع بلادك وقوانين امتك

فقال لها ما معنى ذلك

فقالت أوَيخفى عليَّ امرك فانك تريد ان تتخذها آلة لاغراضك حتى تنصب على عرش بلاد الشام فتاة لا تجوز لها السكنى في بلادك

فقال لها مَن تعنين

فقالت اعني هذه اليهودية التي مرادك ان تتزوج بها رغماً من كل الشرائع والقوانين الارضية والسموية

فقال . أصحيح انك تظنين ذلك أتصدقين اني انا الذي اتيت الى هذه البلاد باسر ديني ولا غرض لي غير دعوة الناس الى دين الحق اقصد من وراء ذلك ان اقترن بابنة يهو ولكن هبي اني معجبٌ بمحاسنها وفضائلها فكيف اطمع بالاقتران بها وهي مخطوبة لابن عمها وليس عندي اقل دليل على انها لا تحبهُ

أمخطوبة هي

نعم مخطوبة وكانت ذاهبة الى حلب مع ابيها لما التقى بها رجالك لكي تزف الى خطيبها

فتغير وجه الملكة وعبست برهة ثم قالت أصحيح ذلك

فقال نعم وهل اخبرك احد بما يخالفهُ

فقالت ان عدوَّة لها ولبيت ابيها اخبرني عنها بما ينافي ذلك . قالت هذا ونظرت الى تنكرد بملء عينيها كأنها تريد ان تستطلع ما في قلبهِ . ثم قالت ومع هذا لا أرى في وجهك غير سمات الصدق

فقال وعلى مَ لا اصدقك الخبر واي علاقة لي بهذه الامور كلها

فقالت اصبت لا علاقة لك بها ولا يهمك شيء من امرها . ولما قالت ذلك جالت الدموع في عينيها

فقال انهُ ليسوءني ايتها الملكة الجيدة ان اراك حزينة

فقالت اني حزينة جدًّا لان هذه الفتاة المسكينة — ثم خنقتها العبرات فلم تعد تستطيع الكلام

فقال لا اسهل من اصلاح ما مضى اذا ارسلتها مكرمةً الى اهلها فقد بلغني ان اباها لم يزل في قيد الحياة فاذا رآها زال ما حلَّ بهم من الكرب وسوءُ سريعًا وسررتِ انتِ بانكِ فعلت ما امرتِ به من كرم الاخلاق وطيب الاعراق وهي تنسى ما حلَّ بها سريعًا حالما تعود الى ابيها وعريسها

فقالت هيهات ثم هيهات فقد نفذ المقدور

فقال ما لقولين

فقالت قضي عليها وصارت في عداد الاموات

فذعر تنكرد وقال معاذ الله معاذ الله

فقالت قضي عليها ولا شبهة عندي الان في انك كنت تحبها

فتأوَّه من كبد حرَّى وقال وا حسرتاهُ وا مصيبتاهُ نعم كنتُ احبها كنتُ احبها كما احبُّ كواكب السماء وشعاع الشمس لعنة الله على هذا المكان وعلى الساعة التي دخلتهُ فيها

فامسكت يدهُ وقالت لا تلعن. فقال اذًا لم تزل حية ولا يمكن ان تكوني قد امرتِ بقتلها

فقالت يا حبذا ذلك ان كان قتلها يجلب علينا اللعنات

فقال . متى حدث ذلك

فقالت منذ ساعة من الزمان

فقال لا اصدق ولا يجسر احد ان يمد اليها يدًا. هلمِّي نذهب اليها

فقالت هيهات فان الموكل بقتلها عدو الدَّة لها

فقال عدوُّ الدَّة . من يمكن ان يكون عدوًّا لها بين قومك

فقالت عدوُّ الدَّة كان يتوقع الانتقام منها ومن اهلها منذ سنين كثيرة

فقال هذا من اغرب ما طرق مسامعي ومن هو هذا العدو

فقالت هو صاحبك الامير الشهباني

فصرخ قائلاً "أالقاتل سفاك الدماء عدو حواء . ولكني لا اصدق . لا بدَّ من سرّ غامض في هذا الامر هلمَّ بنا هلمَّ نسرع لانقاذها

فقالت هو طلب مني ان يقتلها بيدهِ اخذًا بثأرهِ من عائلتها

فقال تنكرد أيقتل يدهِ اختهُ في الرضاع وصديقتهُ الوحيدة التي رضع معها ثديًا واحدًا

وكان يود الاقتران بها ولولا الاختلاف الديني بينهُ وبينها لاقترن بها

فقالت الملكة أنقول انها اختهُ في الرضاع . وقبل ان تتم كلامها دخلت شيرا وعلى وجهها امارات الاضطراب الشديد وقالت مضيت لارى الامير فخر الدين كما امرتني يا مولاتي فوجدتُ انهُ خرج من الحصن ثم مضيت لارى الاسيرة فوجدت انها هربت وثيابها التي كانت عليها ملقاة في ارض مجنها

فقالت الملكة اذًا هربت مع هذا الرجل الذي غشَّنا كنا الذي اخبرني منذ ساعة من الزمان انها مخطوبة لك وحذرني منك ومنها لئلا تستعين بناطل امر تحفارهُ عليك شرائع بلادك

فقال تنكرد قبحهُ الله ما اعظم دهاءهُ وأكثر دسائسهُ

فقالت الملكة لا بأس بما جرى فقد اطمأن بالي الآن

فقال يا حبذا لو كانت مع رجل آخر غيرهُ ايًّا كان

فقال اراك تود ان تكون انت معها وترجعها الى اهلها

فنظر اليها واذا على وجهها علامات الاسف ممزوجة بالحنو والشفقة فقال نعم لقد حان لي ان اختم هذه الزيارة التي كدرت صفو عيشك ايتها الملكة

فاجهشت بالبكاء ثم قالت بصوت منقطع انت تطلب عرشًا غلك عليهِ فعلى مَ لا تقبل هذا العرش وتطلب انصارًا تحارب بهم والتصيرية اشد الناس بأسًا وحصني هذا ليس مثل قصور انطاكية التي تعرف تاريخها ولكنهُ حصين جدًّا لا ينالهُ طالب فتستطيع ان تجعلهُ مباءة لك تجري منهُ اعمالك وتصدر منهُ اوامرك

فقال اراني كنتُ سببًا في امور لا يد لي فيها ولا بدَّ لي من العود الى القفار بلاد العرب استنشق نسيمها النقي فاجلي بهِ هذا الصدأ من نفسي

وكانت شيرا واقفةً تنظر الى السماء فصرخت قائلة ها رسولنا الامين فالتفتت الملكة وتنكرد الى حيث اشارت واذا بقعة صغيرة في السماء ثم اخذت تزيد شيئًا فشيئًا الى ان انجلت عن حمامة من حمام الزاجل فوقعت على يد الملكة فنشت تحت جناحها واذا ببطاقة صغيرة يقال فيها

" يقوم الوالي غدًا بخمسة آلاف من النظام قاصدًا بلادنا "

ولما قرأتها التفتت الى تنكرد وقالت لهُ امض بسلام لان بقاءك هنا الآن لا يخلو من الخطر عليك ولم يزل لك وقت للخروج من البلاد التي احبتك فاحلقرتها

فقال معاذ الله ان اتركها في ساعة الخطر ولا بدَّ لي من الخروج الى لقاء الاعداء في مقدمة جنودك

(البقية في الجزء التالي)